

العواطف الفاسدة سبب كل فساد في المجتمع

للأستاذ محمد أبو بكر إبراهيم

العوظف سلاح ذو حدين ، فكما تكون نافعة اذا كانت معتدلة ، كذلك تكون ضارة اذا جاوزت حد الاعتدال .

والفرد يسعد بعواطفه ويشقى بعواطفه ، والمجتمع يسعد اذا كانت عوظفه متجانسة مقترنة منسجمة ، ويشقى اذا كانت عواطفه متباينة مضطربة متطرفة . ذلك لأن العواطف الصالحة تدفع إلى العمل الصالح ، والعواطف الفاسدة تدفع إلى العمل الفاسد ، فهي أساس السلوك جميعا ، وأساس الأخلاق جميعا خيرا وشرها .

لو رأيت أمة ناشطة في صبر وحزم ، تعيش في سلام روحي ، وأمن اجتماعي ، واطمئنان نفسي ، وتعمل في جو هادئ بنظام شامل ، وإخلاص متبادل وعدالة عامة . فاعلم أن أساس هذا جميعه تلك العواطف الكريمة التي رسخت في نفوس أفرادها فكانت دعامة لكل خير ، وضرما لكل سعادة .

ولو رأيت قرية آمنة مطمئنة يأتينا رزقها رغدا من كل مكان فاعلم أنها قرية قد سادت فيها العواطف الطيبة فانتمت فيها الحياة انتظاما يدعو إلى الإعجاب . ولو وقع بصرك على شخص قد قويت شخصيته ، واطمأنت نفسه ، واتجه إلى البر والاحسان والخير في جميع حالاته ، فهو الفرد الذي جمع عواطف المحبة والمعروف والإيثار حتى صار قويا بربه وعطفه وعمله .

ولو رأيت أمة شقية فوضوية تعيش في هرج ومرج وتخدر في سلوكها وتصرفاتها إلى المستوى المنخفض فاعلم أنها أمة قد غلبت عليها عواطف الشر فتدهورت بها إلى الحضيض .

وهل سمعت بالقرية الظالم أهلها ، المشرفة على شفا الهلاك والفناء : إنها القرية التي انتشرت بين أبنائها عواطف الحرص والطامع والغدر والخداع والظلم والبهتان . (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أهلها مصاحون) .

ثم حل رأيت الأفراد الأوغاد وقد سقطت نفوسهم ، وساءت ظنونهم ، وتلوث أخلاقهم ؛ فلم يكن سلوكهم الاخرقا في العمل ، وجفوة في القول . إنهم قد انطبعت نفوسهم بعواطف الخبث والحسة والشر . فعلى حسب العواطف يكون السلوك وتكون الأخلاق .

فن الناس من غلبت عليه العاطفة الشهوية وتطرفت تطرفا أقصاها عن الاعتدال والحكمة فصار محبا لذاته الجسمية مقبلا عليها متجها إلى الدنيا بكلياته وجزئياته : يخشى أن يفوته شيء مما قد يستمتع به غيره من الناس . فتراه حريصا شديدا الحرص ، بخيلا شديدا البخل على المجتمع والمحتاجين ، وهو في الوقت نفسه مسرف كثير الإسراف في لذته الشخصية ومنفعته الذاتية : يبعد كل شيء فيه منفعة له وإن يكن حراما . ويقدم كل شيء فيه سرور لنفسه وإن يكن ضارا بالآخرين .

لأن هذه العاطفة الشهوية قد طاحت به في أودية الغرور وأبعدته عن أودية الحياة الفاضلة السعيدة .

ومن الناس من غلبت عليه العاطفة الغضبية حتى صار غضوبا ساخطا مؤذيا بلسانه ويده وقلمه ، يحاول البطش بمن هم دونه في المنزلة أو في القوة أو في الجاه أو في الحياة العملية : فيتكبر على المساكين ، ويلوى عنقه عن المحتاجين ، ويثني عطفه عن الناس أجمعين ، هو لا يعف عن سغاف الأمور ، ولا يتورع عن الباطل والادعاء والزور .

يكون كالبركان الثائر الذي يطغى بنااره ودخاناه على ما يجاوره من المدن والقرى والسهول والقلاع والبقاع .

إن جاور أحدا أغضبه ، وإن عاشر أحدا أنصبه ، وإن صاحب أحدا حمل عليه مالا يطيق ، فهو كالسم القاتل والداء الياء ، وإن خطب الغادح .

ومن الناس من غلبت عليه عاطفة الحسد والكرد لمجتمعه ، فيكره الناس ويكرهونه ، ويمقتهم ويمقتونه ، يودّ لو فنى العالم ليبقى هو وحده ، ويتمنى لو تزول المشروعات النافعة الاجتماعية ، وتذهب في الهواء فلا يكون للجمع منها نصيب ، يكره النفع للناس ليستأثر هو بالفخار والثمرات والأموال . وهذا منتهى الانحطاط في الأخلاق الاجتماعية .

وهيات أن يطيب عيش لهؤلاء الشهويين والغضبیین والحاقدين والحاسدين . إن ينالوا خيرا لأنفسهم ، وإن يعملوا خيرا لأمتهم ، فقد فسدت طبيعتهم ، وفسدت عقليتهم وضاعت حكمتهم فكانوا سرا على ذويهم وعلى وطنهم .

إن المصلحين والمجاهدين ورجال التربية والتعليم يعلنون دائما على ما يهذب الانفعالات والعواطف والوجدانات . ويرقيها ويضبطها ضبطا سليما حتى تخضع للعقل والضمير والقانون والشرع فتشعر عواطف جميلة ينشأ عنها السلوك الراق والخلق المتين . حتى يطرب المرء للخلال الكريمة ، والشائمل النبيلة ، وتزه الفضائل هزة الحب المخلص كما يقول المرحوم حافظ بك ابراهيم في الفضيلة :

إني لتطربني الخلال كريمة طرب الغريب بأوبة وتلاق
ويهزني ذكر المروءة والندى بين الشائمل هزة المشاق

ذلك لأن هذه الانفعالات والعواطف التي خضعت للحكمة والعقل قد نشأ عنها الانسجام النفساني ، والتوازن بين القوى فتصبح النفس موطنا للفضيلة ومستودعا للخير ، فلا ظلم ولا عدوان ولا بغى ولا كفران وهذه هي العدالة والاعتدال والسعادة الروحية . أما إذا لم تخضع هذه الانفعالات خضوعا سليما حكما ، فإنها تتحكم في السلوك تحكما قاسيا سيئا .

فانفعال حب التملك مثلا قد يدفع الإنسان بقوة قاسرة إلى اقتناء الأموال من طرق غير مشروعة فيجذبه ويحذب عاطفته إلى السرقة والنصب والاحتيال ، وأكل أموال الناس بالباطل ، يحتطف ما يستطيع اختطافه ، ويقتنص ما يمكن اقتناصه ، إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يتمص دماءهم وكيف يظلمهم ويمتس أموالهم . ولا يعاملهم إلا كما يعامل بقراته السمان : يطعمها ويسقيها لما يترقب من الرخ فيها . ذلك بسبب أن هذه العاطفة قد تطرفت بصاحبها بفعلته أنانيا نهما شرها مؤثرا حياته على حياة مجتمعه ، معتزلا الفقراء والضعفاء ، لا يرى لهم حقا ولا يرى لهم واجبا .

إن هذه العواطف الفاسدة تؤدي إلى تفكك المجتمع ، وتقطع أواصره فيفسد كل شيء فيه .

ويهزون من الفضائل الاجتماعية لأنهم لا يعرفون مجتمعا سوى ذوات نفوسهم ، ولا حياة سوى حياتهم إذا سمعوا فضيلة الإيثار ، وحب الغير والناس ، أصحوا آذانهم عما يسمعون كأن في آذانهم وقرا ، وكأن في قلوبهم خزا : لا يشاطرون مجتمعتهم في سرائه وضرائه ، ولا يحسون كما يحس ، ولا يتألمون كما يتألم ، فهم منافقون مخادعون : يرضون عليه بالجلود والسخاء ثم يهرولون إلى خيراتهم فيغتصبونها ويحاوونها لأنفسهم .

هؤلاء هم الذين وصفهم شاعر سوريا "بقوله :

ضاع رأي فيمن أرى حين أمست ألسن الناس لا تطيع القلوبا
تارة أحسب الحبيب بغضا وزمانا أرى البغيض حيبا
يحسبون الجميل أسوأ صنع والسجايا المكلمات عيوبا

ألا إن الفضائل كلها تنشأ من العواطف المهذبة الراقية والذائل كلها تنشأ من العواطف السافلة الجاحمة ولن يصل الفرد والمجتمع إلى السعادة الخالدة إلا بالعواطف الشريفة النبيلة ما

محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش بوزارة المعارف